

الوافي في الوفيات

وبطر أمّي ورحم أختي ... ولحيتي في خرا عيالي .
ونع عمّي بلا امتراءٍ ... مدحرج في قذال خالي .
إن كنت عاينت قطّ غصناً ... مرّت به نسمة الشّمال .
؟ أحسن منه إذا تثنّى تميله نشوة الدّلال .
؟ ابن مسكويه .

أحمد بن محمد بن يعقوب أبو علي الخازن صاحب التجارب ابن مسكويه مات فيما ذكره يحيى بن منده في تاسع صفر سنة إحدى وعشرين وأربعمائة . قال أبو حيان في كتاب الامتاع وقد ذكر طائفة من متكلمي زمانه ثم قال : وأما مسكويه ففقير بين أغنياء وعيّي بين أبناء . وقال الثعالبي : في الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر وكان في ريعان شبابه متصلاً بابن العميد مختصاً به وفيه يقول :

لا يعجبنيك حسن القصر تنزله ... فضيلة الشمس ليست في منازلها .

لو زيدت الشمس في أبراجها مائة ... ما زاد ذلك شيئاً في فضائلها .

ثم تنقلت به أحوال جلييلة في خدمة بني بويه والاختصاص بهاء الدولة وعظم شأنه وارتفع مقداره عن خدمة صاحب ولم ير نفسه دونه . ولم يخل من نوائب الدهر حتى قال ما هو متنازع بينه وبين نفر من الفضلاء :

من عذيري من حادثات الزمان ... وجفاء الإخوان والخلان .

قال : وله قصيدة في عميد الملك تفنّن فيها وهنأه باتفاق الأضحى والمهرجان في يوم وشكا سوء الهرم وبلوغه إلى أرذل العمر :

قل للعميد عميد الملك والأدب ... اسعد بعيدك عيد الفرس والعرب .

هذا يشير بشرب ابن الغمام ضحى ... وذا يشير عشيّاً بابنه العنب .

خلائق خيّرّت في كلّ صاحبةٍ ... فلو دعاها لغير الخير لم تجب .

أعدت شرخ شبابٍ لست أذكره ... بعداً وزدت عليّ العمر من كذب .

فطاب لي هرمي والعمر يلحطني ... لحظ المرهب ولولا أنت لم يطب .

فإن تمرس بي خصم تعصّب لي ... وإن أساء إليّ الدهر أحسن بي .

وقد بلغت إلى أقصى مدى عمري ... وكلّ غربي واستأنست بالنوب .

إذا تملأت من غيظٍ على زمني ... وجدتني نافخاً في جذوة اللّهب .

وكان مسكويه مجوسياً وأسلم وكان عارفاً بعلوم الأوائل . ولابن مسكويه كتاب الفوز

الأكبر وكتاب الفوز الأصغر وصدف في التاريخ كتاب تجارب الأمم ابتداءه من بعد الطوفان إلى سنة تسع وستين وثلاثمائة . وله كتاب أنس الفريد وهو مجموع يتضمن أخباراً وأشعاراً مختارة وحكماً وأمثالاً غير مبوب وكتاب ترتيب العادات وكتاب المستوفى أشعار مختارة . وكتاب الجامع وكتاب جاوذان خرد وكتاب السير ذكر ما يسيّر به الرجل نفسه من أمور دنياه مزجها بالأثر والآية والحكمة والشعر . وكان ابن العميد اتخذه خازناً لكتبه